الواقع الفلسطيني بين ألم النكبة وأمل الحرية والاستقلال

ناهض منير الريس

اتسم الواقع الفلسطيني بعد نكبة فلسطين بالصدمة والفجيعة والشتات. فحين يفقد الإنسان أعزاءه في الحرب ويصبح مقتلعا من موطنه ويجد أنه قد فقد مقومات الحياة كلها من مسكن وعمل ومورد وبيئة اجتماعية دفعة واحدة فإن البرهة الأولى من هذه (النكبة) يغلب عليها الذهول والشلل وانعدام الثقة وتزعزع الإيمان لدى العناصر الأضعف في تكوينها النفسي . وربما تسببت هذه العناصر في الجنوح للاستسلام ثم الاندثار . بينما تبدي العناصر الأقوى تطلعا إلى تضميد الجراح وإلى أية فرصة سانحة لإعادة ترميم الذات

والوقوف على الأقدام .

ودون أن نقع في العنصرية الوطنية والتحيز للعرق يمكننا القول إن أغلبية الفلسطينيين بعد نكبة فلسطين أظهروا ثباتا ورزانة وقدرة على التكيف في مواجهة العاصفة التي دمرت حياتهم ، وأظهروا استمساكا قويا بموقف الصمود والأمل . في حين لم يكن لمن دعوناهم العناصر الأضعف تأثير مواز على المجموع .

لقد تشردت إثر زلزال النكبة الغالبية العظمى من الفلسطينيين وأخرج من الديار أكثر من ثمانمائة ألف فلسطيني عام ١٩٤٨ . ولجؤوا إلى أماكن شتى وتوزع العدد الأكبر كيفيا في عشرين مخيما في أنحاء الضفة الغربية ، وفي ثمانية مخيمات في قطاع غزة وبقي حوالي مائة وسبعين ألفا تحت حكم الاحتلال . ونزح آخرون إلى الأردن الشقيق وأقاموا في ثلاثة عشر مخيما هناك . وخرج أهالي شمال فلسطين إلى لبنان وسوريا ، وحمل الجيش العراقي المنسحب من فلسطين إلى العراق بعضا من الأهالي . وبمرور السنوات ازداد الشتات الفلسطيني ازديادا مطردا وأظهرت دراسات إحصائية نشرها المكتب المركزي للإحصاء بمنظمة التحرير الفلسطينية ، وذلك في ثمانينيات القرن الماضي ، تفاصيل هامة عن ذلك الشتات الجديد في بلدان أخرى كالكويت وليبيا ومصر والسعودية والإمارات وقطر والبحرين وعمان ، ونشر أيضا تقديرات للمقيمين كذلك في اليمن

والجزائر وتونس والمغرب وموريتانيا والسودان . ولم تقتصر الهجرة على ما أعقب سنوات النكبة مباشرة ولكن ثمة تهجيرا واسعا مدبرا بعناية قد حدث فيما بعد نحو الولايات المتحدة وكندا وأستراليا والدول الاسكندنافية وبعض دول أوروبا حتى انتشر الفلسطينيون تحت كل كوكب وتكاثرت جالياتهم . فكان تبعثر الفلسطينيين في بلاد الناس هو الجناية الأخرى المقابلة لجمع اليهود من بلادهم الأصلية إلى حيث أحلوهم في فلسطين .

لا عجب أن تكون كل قصة من قصص اللجوء الفلسطيني مأساة أيا كانت ظروفها وأسبابها . وتلك الظروف والأسباب في حالة الفلسطينين لم تخل من أن تكون توابع حروب أو كوارث أو ضيق أصاب حياتهم . على أن قصص اللجوء هي قصص أليمة حتى في الظروف العادية التي ينتقل فيها الإنسان الفلسطيني من مكان إلى مكان بحثا عن حياة أفضل . وذلك أن الغربة ليست بالشيء البهيج . وما من مغترب إلا كابد في اغترابه مرارة البعد عن أهله وذويه وواجه صعوبات بناء حياة جديدة في بيئة جديدة وبين أناس ذوي ثقافة وطباع ومعتقدات تخالف ما لديه وما نشأ عليه وهكذا حرم من النمط العادي الهانئ من الحياة واضطر إلى نمط مستعار حافل بالمصاعب . لقد تكبد الفلسطينيون كلهم بسبب نكبة فلسطين آلاما قاسية على نحو أو آخر تبعا لظروف كل شريحة من شرائحهم أو موطن من مواطن اغترابهم .. كان ذلك مشهودا في أعقاب حادثة النكبة مباشرة . وما زال يحدث اليوم بعد ستين عاما على حادثة النكبة . فعقابيل ضياع الوطن تتوالد إلى ما لا نهاية في حياة الفلسطينيين حتى أصحاب الملايين منهم .

على أن المتأمل في تجربة الشعب العربي الفلسطيني بعد مرور هذا الزمن كله يتبين له بوضوح أن هذا الشعب الذي جرد من كل شيء ظل يجدد شعلة الأمل المتقدة في نفسه بفعل إيمانه وأصالته وتمرسه بالكفاح . وباشر جهوده فورا للتغلب على الضياع .

لقد ظل محافظا على شخصيته الحضارية كما تبدو في عاداته وتقاليده في حياته اليومية وفي أفراحه وأحزانه وعلاقاته العائلية وتربية أطفاله وأسلوب طعامه ولباسه . وهذه المحافظة تؤكد مدى اعتزازه وتماسكه بعد المحنة التي مر بها .

كما كان أمل الحرية والاستقلال هو الطابع الأوضح الذي اتسمت به حياة الفلسطينيين بعد النكبة سواء في بوادرها النفسية أو في مبادراتها العملية . فما أسرع ما شملتهم نزعة ملحوظة نحو تعليم أبنائهم ، مستفيدين من فرص التعليم المجاني الذي أتيح لهم من قبل وكالة غوث اللاجئين أو من قبل العهد المصري الجديد في أوائل الخمسينيات . وفي حين كان التعليم في زمن الانتداب البريطاني محدودا للغاية بحيث لم تتجاوز أعداد الحائزين على شهادة إتمام الدراسة الثانوية العشرات ، إذا بالتعليم بعد النكبة يفتح على مصراعيه للدرجات الجامعية فيتخرج بدءا من عقد الخمسينيات من القرن الماضي الآلاف من أبناء فلسطين معلمين وأطباء ومهندسين ومحاسبين وغير ذلك ، وتصبح هذه الميزة التي أكسبتهم إياها الظروف المستجدة ذات أثر ملموس في تأهيلهم للعمل في أسواق العمل وبالتالي تحسين حالة أهالي المتعلمين في مخيمات اللجوء وتمكين شرائح جديدة من الشباب الأقارب من الحصول على فرص التعليم .

كان ذلك شعاعا من الأمل الذي دخل إلى قلوبهم في غربتهم وخذلانهم . ثم ما هي إلا برهة يسيرة وإذا بالأمل يتولد ويتجسد في أقوى مظاهره عنفوانا ، وإذا بكتائب عسكرية وكتائب فدائيين تتشكل في قطاع غزة وتضم نخبة من المقاتلين الشبان المتطلعين إلى استعادة الوطن السليب . وكان لهذه الخطوة مفعول سحري في تعزيز الروح المعنوية وإحداث دفعة قوية للأفكار الثورية التي نبعت أصلا كردة الفعل الطبيعية على حادثة النكبة استنكارا ورفضا لها وثورة على الواقع الناجم عنها . كما كانت جميع فئات الشعب العربي الفلسطيني التي شهدت حادثة النكبة قد لاحظت أن ما يعرف بحرب فلسطين لم يكن حربا ولكن مسرحية لعبت فيها الخيانة دورها في تسليم فلسطين إلى العصابات الصهيونية . فكان ذلك بين الأسباب التي كمنت في خلفية العزم على خوض جولة ثانية ضد العدو . ويجب القول أيضا إن الثورات التي تفجرت في آسيا وافريقيا وأمريكا

الاتينية خلال الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين عززت الباعث والإلهام والأمل الفلسطيني في نهج التحرير واسترداد الوطن .

ولم يكن الذين صنعوا المؤامرة في غفلة عن ما يمكن للاجئين أن يحلموا به عندما يفيقون من صدمة النكبة . ولذا أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة منذ عام ١٩٤٩ قرارها بإنشاء وكالة غوث اللاجئين الفلسطينيين وتشغيلهم التي أنيطت بها كما هو واضح من اسمها مهمتان : الأولى إنسانية وهي تقديم الغوث لهم . والثانية اجتماعية وهي إدماج اللاجئين في برامج عمل وإسكان .

وسبق إنشاء الوكالة تقرير من لجنة الاستقصاء الاقتصادي التي شكلوها لتقرر في نهاية المطاف إن ((شقاء اللاجئين هو في آن واحد عرض من أعراض عدم الاستقرار الاقتصادي وسبب من أسبابه)) . واقترحت : ((برامج خاصة بتشغيل اللاجئين وإغاثتهم ، على ان تصفى برامج الإغاثة تدريجيا ويستمر اتخفيض في عدد اللاجئين الذين يتلقون المعونة بالنسبة إلى زيادة عدد اللاجئين المشتغلين وفق برنامج الأشغال العامة .))

واستكمالا لهذه الاتجاهات عرض جون فوستر دالاس وزير الخارجية الأمريكي في تصريح له عام ١٩٥٥ مبدأ جديدا في التعامل مع قضية فلسطين هو توطين اللاجئين في البلاد العربية . ومنذ ذلك الحين فصاعدا تركزت المحاولات والمشاريع الغربية على ما يمكن أن ندعوه الحل الاقتصادي للقضية الفلسطينية . وفحواه التنكر للحل الطبيعي (السياسي) الذي يقضي حتما بإعادة الذين أخرجوا من بلادهم إلى بلادهم . وتوالت مشاريع غربية وإسرائيلية عديدة على مر السنوات ، وكلها تقوم على التوطين . وكلما مضى الزمن لحق بها مزيد من المسخ والتبخيس . وبين تلك المشاريع مشروع سيناء لتوطين لاجئي القطاع ومشروع بردلى وغور الصافي لتوطين لاجئي الضفة ومشروع الرمدان لتوطين لاجئي سوريا ومشروع اليرموك لتوطين لاجئي الأردن ومشروع الليطاني لتوطين لاجئي لبنان . وكلها مشاريع امريكية قاومها الشعب العربي الفلسطيني وأسقطها .

اشتد في تلك المرحلة ما يمكن أن ندعوه اشتعالا ذاتيا لدى الفلسطينيين تحول معه مزيج الألم والحنين ورفض الحياة النكدة في المخيمات والمدن والقرى إلى طاقة محركة نحو تجسيد المشروع الوطني في أشكال مؤسسية عملية فاتجهت بعض النخب الشبابية الفلسطينية إلى الأحزاب القائمة آنذاك ، بحسبان تلك الأحزاب ساحات وميادين للنضال . ومهما تكن العقائد والأيدولوجيات التي تبنتها تلك الأحزاب فقد نظر إليها روادها الفلسطينيون على أنها طرق سالكة نحو فلسطين ما دامت القضية الفلسطينية نقطة إجماع لا يختلف عليها أحد .

ثم حدث منذ أواخر الخمسينيات أن سادت الأوساط الشبابية الفلسطينية في الوطن وفي أقطار الخليج دعوة غلابة تدعو إلى حرب تحرير شعبية على غرار حروب الصين والجزائر وكوبا . وتبلورت هذه الدعوة في أشكال تنظيمية تجمع شرائح من الشباب المتطلعين إلى افتتاح عمل ثوري فلسطيني داخل الوطن المحتل .

كانت نتيجة ذلك المخاض ولادة فصائل منظمة التحرير الفلسطينية على اختلاف ألوانها . ودفعها أمل الحرية والاستقلال إلى خوض معارك التحرر لا سيما بعد حرب عام ١٩٦٧ . وشكلت معارك فصائل منظمة التحرير دورا داميا من أدوار النضال الوطني الفلسطيني . ثم انخرطت قيادة المنظمة بعد مرحلة الخروج من لبنان في توجه يعتمد استراتيجية المفاوضات والعمل الدبلوماسي بديلا للكفاح المسلح وإن لم تتنكر لاستراتيجية الكفاح المسلح .

وفي هذه الأثناء تمخضت جماهير الشعب العربي الفلسطيني في اشتعالها الذاتي الدائم عن ولادة فصائل العمل الإسلامي وعلى رأسها حماس والجهاد اللتان أبقتا على أولوية استراتيجية الكفاح المسلح . واتسم عملهما بمزيد من الكشف عن طاقات أقوى على الفداء والإنجاز الجهادي . ولكن الوصول إلى هدف الحرية والاستقلال ما زال يحتاج إلى مزيد من الجهاد والتضحيات .